الفصل الرابع

اَلفائِزُون بِالشَّفاعَةِ

* اَلْفائِزُونَ بِالْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسابٍ.
* اَلتَّوْحِيدُ الْخالِصُ.
* إِجابَةُ النِّداءِ.
* سُكْنَى الْمَدِينَةِ.
* مُناجاةٌ حَوْلَ الشَّفاعَةِ.
* عُتَقاءُ اللهِ تبارَكَ وتعالَى.
* إِغْلاقُ الْأَبْوابِ.

اَلْفائِزُونَ بِالْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِساب

أخرج الإمام مسلمٌ فِي صحيحِه بسندِهِ عنْ أَبِي هُرَيْرةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِساب.»

فقالَ رَجُلٌ: يارَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قالَ: «اَللَّهُمَّ.. اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» . ثُمَّ قامَ آخَرُ فَقال: يارَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قالَ: «سَبَقَكَ بِها عُكاشَةُ» .

* * *

هذه الرِّوايةُ وأَمثالها من بُشرياتِ الحبيب المُصْطَفَى ﷺ لأُمَّتِهِ. فلقد علَّمه ربُّه أنَّ هناك طوائفَ من المُسلمين يدخلون الْجَنَّةَ بغيرِ حساب ولا عقاب.

وقُدِّرت هذه الطوائفُ بسبعين أَلْفًا، وفي رواية أخرى: «سَبْعُونَ أَلْفًا.. مَعَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا» ، وأَيًّا ماكان، فالمُراد عددٌ كثيرٌ كرّم الله به النَّبِيَّ وَأمة الإسلام..

وقد جاء وصفٌ لهؤلاء بأنهم على صورةِ القمرِ ليلةَ البدر، وأنهم مُتَماسِكون، آخذٌ بعضُهم بعضًا، لايدخُلُ أَوَّلُهم حتى يدخُلَ آخِرُهم، أي: إنهم يدخلون صفًّا واحدًا، بعضُهم بجوارِ بعض، مِمَّا يُؤكِّد عِظَمَ سَعَةِ بابِ الْجَنَّةِ.

وقد استحقّ هؤلاء السَّبْقَ إلَى الْجَنَّةِ والدخولَ بِغَيْرِ حِسابٍ لِصِدْقِ عقيدتِهم فِي اللهِ، وكمالِ اعتِقادِهم فِي قُدْرةِ اللهِ وجلالِه وَكَمَالِه فقال ﷺ : «هُمُ الَّذِينَ لايَكْتَوُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ» أَى إنهم بلغوا القمةَ فِي الإيمان. يمارسون حياتهم ويتخذون الأسبابَ المشروعة، إلَّا إنَّ لهم صِلةً قويّة باللهِ عزّ وجلّ تُثَبِّتُهُمْ بالقولِ الثابتِ فِي عقيدتِهِمْ فالتوكّل: حرَكةُ قلبٍ، والأخذُ بالأسبابِ: حركةُ جوارحٍ، ولامُنافاةَ بيْنهما. وقد رَقَى رسولُ اللهِ ﷺ واسترْقَى، وحثّ على التَّداوِى، وذكر منافعَ بعضِ الأدويةِ والأطعمةِ كالعسلِ والحبَّةِ السوداء.

ولما شوَّق الرسولُ أصحابَه إلَى ما أعدّه الله لهؤلاء السابقين، قام أحدُ الصحابةِ، وهو عُكَّاشَةُ (بضم العين وتشديد الكاف أو تخفيفها) وسأل الرسُولَ ﷺ أنْ يدعوَ اللهَ له فيجعلَه من هؤلاء السابقين.. واستجاب الله تبارك وتعالى دُعاءَ نبيِّه، وبشَّر الرسولُ ﷺ عكاشة بهذه المنزلةِ العظيمةِ..

وأمامَ هذه الاستجابةِ السريعةِ والبُشرى العظيمةِ قام رجلٌ آخرُ وطلب نفْسَ الطلبِ، وقال: يارسول اللهِ، أُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْهُمْ، فداعبه الرسولُ الكريمُ ﷺ وقال له: «سَبَقَكَ بِها عُكَّاشَةُ».

ولعلّ الرجُل الثانىَ لم يكن بصفةِ السابقين ولا بمنزلة عُكاشة فِي الدِّين، فلم يتلقَّ الرسولُ وحيًا بشأنِه..

اَلتَّوْحِيدُ الْخالِصُ

أخرج البخاريُّ في صحيحِه بسـندِه عن أَبِي هُرَيرَةَ أَنه قال: قُلْتُ: يارَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفاعَتِكَ، يَوْمَ الْقِيامَةِ؟

قالَ رسـولُ اللهِ ﷺ : «لَقَدْ ظَنَنْتُ - يَا أَبا هُرَيْرَةَ - أَن لا يَسْـأَلَنِي عَـنْ هذا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمـا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ. أَسْـعَدُ النَّاسِ بِشَـفاعَتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ: مَنْ قالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ، خالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ».

***

أَبو هُريرَةَ: راوِيَةُ الإسْلام، منحَه اللهُ ملَكةَ حِفظٍ واسعةٍ. وقد سأل رسُولَ اللهِ ﷺ سـؤالاً عجبًا، كان محلَّ اهتمامِ الرسـولِ الكريم، ودلَّ على شغفِ أبي هريرةَ بالعلم، وحِرْصِه على المُتابَعةِ الأمينةِ للمصطفى الكريم..

لقد قال: يارسولَ اللهِ: منْ أسعدُ النَّاسِ بشفاعتِك يوْمَ القيامةِ؟

أي: من أكثرُ الناس انتِفاعًا بشـفاعةِ الرسـولِ الكريم، لأن شـفاعة الرسـول ﷺ مُتعدِّدة، منها ماهو عامٌّ للخلائقِ أجمعين، وهو الشفاعة العُظمى، ومنها ماهو خـاصٌّ. وهذا الخاصُّ للمُؤمنـين فقط. قد يكون دخولًا للجنةِ بلا حسـاب، أو رفعًا للدرجاتِ، أو إخراجا من النَّار بعد قضاءِ العُقوبة المُؤقَّتة..

فالسؤال من أبي هريرةَ: عَمَّن يحصُل على قدْرٍ أعظمَ، ويستفيدُ فائدة كُبْرى... ولأهمِّيَّةِ السؤالِ، ولمَكانةِ أبي هُريرة، قال عليه الصلاةُ والسَّلام: «لَقَدْ ظَنَنْتُ – يا أبا هُرَيْرَة – أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هذا الحَديثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ، لِما رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ» .

ثم أجاب الرسولُ ﷺ على السؤالِ، مُحدِّدًا صفاتِ هؤلاء السُّعداء، فقال: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفاعَتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ: مَنْ قالَ : لا إله إلَّا اللهُ، خالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ» (شَكٌّ مِنَ الرَّاوى).

فهؤلاء السعداء هم الذين حقّقوا عُمْقَ الإيمانِ وانشرحتْ صُدورهم بنورِ الإسلام، وأخلصوا العِلْمَ والعمَل، وآثروا المُتابعة وحُسْنَ الاقتداء..

والمُراد بقولِه «مَنْ قالَ» : من نطَق مُعبِّرًا عن عقيدتِه. والمُراد بقولِه: «لا إله إلا اللهُ» : كلمةُ التوحيد بشِقَّيْها المُتعلِّقَيْن بالألوهيةِ والنُّبُوَّةِ، أى: «لا إِلَهَ إلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» . فلا يَكْفِي أحدُهما دون الآخرِ، فهما مُتلازِمان. فالدِّين قائمٌ عَلى توْحيدِ الله تبارك وتعالَى ونُبُوَّةِ مُحمدٍ ﷺ..

وهذه العقيدةُ لابُدَّ أَنْ تكونَ خالصةً من النِّفاق والرِّياءِ على حَدِّ قوله تبارك وتعالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ ﴾[1].

(١) سورة الزمر الآية ٢.

ومتى سَـلمت العقيدةُ من الشِّرْك وقامت على الإخلاص: فقد تحقّقت المُتابعة، واستكمل الإنسانُ أسبابَ السعادةِ في العملِ، وتفضّل الله تبارك وتعالى عليْه بمعالمِ السعادةِ في الأجر والثوابِ..

إجابَةُ النِّداءِ

أخرج البخاريُّ في صحيحهِ، بسندهِ عن جابرِ بن عبد اللهِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال:

«مَنْ قالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّداءَ: اَللَّهُمَّ: رَبَّ هذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ الْقائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوسِيلَةَ والْفَضِيلَةَ وابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفاعَتِى يَوْمَ الْقِيامَةِ».

***

المُراد بالنِّداء هنا هو الأذانُ للإعلام بدُخولِ وقت الفريضة. ومحلُّ هذا الدعاءِ عَقِبَ الفراغِ مِن الأذان لقوله ﷺ كما ورد فى صحيح مسلم:

«إذا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مايَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَىَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى علَىَّ صَلاةً: صلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِىَ الْوَسِيلَةَ».

وسُؤال الوسيلةِ يكون بهذه الكلمات النبويَّةِ:

«اَللَّهُمَّ، رَبَّ هذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ الْقائِمَةِ: آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ والْفَضِيلَةَ وابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ».

والمُراد بالدعوةِ التامةِ، دعوةُ التوحيد؛ فهى تامّة لاشِرْكَ فيها، وهى تامَّة، أى: باقيةٌ إلَى يوْمِ الدِّين.

والـمُـراد بالصلاةِ القائمةِ: قولُ الـمؤذِّن: «حَـيَّ عَلَى الصَّلاةِ» لأنها دعوةٌ إِلَى إقامةِ الصلاةِ الـمأمورِ بها فى مِثلِ قولِهِ تبارك وتعالَى:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (١).

والوسـيلةُ: ما يُتَقرَّب بِهِ إِلَى شـىءٍ آخرَ أعظمَ، وقد فسّرها الحديث الشريفُ القائلُ: فَإِنَّها مَنْزِلَةٌ فِى الْجَنَّةِ لاتَنْبَغِى إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبادِ اللهِ.. وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنا : هُوَ» . فهذه المنزلةُ تُقرِّب الـمُصطفى ﷺ إِلَى ربِّه، وتجعلُه فِى مقام كريم.

والفضيلة: هى مرتبةٌ زائدة تخصُّ سـيدَنا محمدًا دون سائرِ الخلق، وقد تكون تفسيرًا للوسيلة..

والمراد بقوله: «وابْعَثْه مَقامًا مَحْمودًا» : هو الشـفاعةُ العُظمى لفصلِ الخطاب بيْن الخلائق. وجاء اللفظُ بالتَّنْكير مُراعاة للنَّصِّ القرآنيِّ:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٢).

وجـاء التنكيرُ أيضًا للتَّفْخيـم.. وهناك روايـةٌ بالتعريف، هكذا: «وابْعَثْهُ الْـمقامَ الْمَحْمُودَ» . وإنما كان المقامُ محمودًا، لأنَّ الخلائقَ كلَّها تحمدُ فيه رسولَ الله مُحمّدًا ﷺ لشفاعتِه عند ربِّه.

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٠.

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٩.

وإذا حافظ المُسلم على هذا الدُّعاءِ عَقِب الأذانِ وجبتْ له شفاعةُ الحبيبِ المُصْطفى، ودخَل تحت اللِّواءِ المرْفوع لسيِّدِنا رسولِ اللهِ، وحظِيَ بمزيدِ الثوابِ والفضلِ من اللهِ العَلِيِّ الأَعْلَى..

سُكْنَى الْمَدِينَة

أخرج مسلمٌ فِي صحيحِه، بسندِه عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ : «إِنِّي أُحَرِّمُ ما بَيْنَ لابَتَي الْمَدِينَةِ أَنْ يُقْطَعَ عِضاها، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُها» وقالَ: «الْمَدِينَةُ: خَيْرٌ لَهُمْ، لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ، لايَدَعُها أَحَدٌ، رَغْبَةً عَنْها: إِلَّا أَبْدَلَ اللهُ فِيها مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ.. وَلايَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأْوائِها وَجَهْدِها إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيامَةِ» ..

***

المدينة هي البلدة الطَّيِّبة التى أقام فيها الرسولُ ﷺ بعد هجرته من مكة، واستقر فيها مع أصحابِه الْمُهاجرين والأنصار، وانتشر منها نورُ اللهِ فى الآفاقِ، وجاء نصرُ اللهِ والفتحُ.. وقد حظِيَت المدينة الْمُنَوَّرة برفعةٍ وشرفٍ، كما حظِيَت مكةُ الْمُكرَّمة. فإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذى بنَى الكعبةَ مع ولدِه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ونشأت حول الكعبةِ مكَّةُ، واستقر الناسُ فيها، وتحوّلت إلَى حَرَمٍ آمِنٍ، يُجْبَى إلَيه ثمراتُ كلِّ شيء..

وبما أن محمدًا ﷺ هو دعوةُ أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما فى قوله تبارك وتعالى:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١).

فلقد دعا سيِّدُنا محمدٌ ﷺ للمدينةِ، كما دعا إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام لمكَّةَ، واستجاب الله دعوة نبيِّه محمد ﷺ، فجعل المدينةَ حرمًا آمِنًا، أى: مكانًا معظَّمًا، تُضاعف فيه الحسنةُ، ولا يُقطع عِضاها، أى: شجرُها الذى لايستنبتُه الناس، ولايُطارد صيْدُها..

وبيّن الرسولُ ﷺ، حدودَ المدينةِ، فقال: «مابَيْنَ لابَتَيْها.». واللَّابَةُ هى الأرضُ ذاتُ الحجارةِ السوداء، وتُسمى حَرَّة، وللمدينة حرَّتان: شرقية وغربية..

ولمَّا كان المسلمون فى أول عهدهم بالهجرة يُعانون من ترْكِ الأوطان والأهل والمالِ، والانتقال إلى طقْس لم يألفوه سبّب لهم بعض الأمراض - فقد رغّبهم الرسولُ ﷺ فى الإقامة بالمدينة، حِرصًا على العقيدةِ وتدعيمًا لقوةِ المسلمين، فقالَ: «لايَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأْوائِها وجَهْدِها: إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيامَةِ» واللأواء: الشِّدَّة والْجوع.. والجَهد - بالفتح - : المَشَقَّة.. فهؤلاء الذين هاجروا فى الله ولله، وليس لدُنيا يُصيبونها أو نساء ينكحونها؛ فإنّ الرسول الكريم ﷺ يكون لهم شهيدا على أفعالِهم الصالحةِ، شفيعًا لهم عند المَلِكِ الحقِّ المُبين.

وهذا الحُكم مرهونٌ بهذه العِلّة، فحيْث تكون الإقامةُ بالمدينةِ من أجل الدِّين ونُصرة المسلمين، فللمُقيم هذه الشفاعةُ من الرسولِ ﷺ أما الذين

(١) سورة البقرة الآية ١٢٩.

يذهبــون لغرضِ الدُّنيا ومتاعِ الحياةِ وجمعِ الأموالِ، فلا نصيبَ لهم من هذه الشفاعةِ إلا بقدرِ نيَّتِهم وحُسنِ علاقتِهم بإخوانِهم والتزامِهم بشرْعِ اللهِ ووفائِهم لرسولِ اللهِ ﷺ.

مُناجاةٌ حَوْلَ الشَّفاعَة

أخرج البخاريُّ في صحيحِه، بسندِه عن حميد، قال:
سَمِعْتُ أَنَسًا ﷺ، قالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إذا كانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ شُفِّعْتُ، فَقُلْتُ: «يارَبِّ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ).

فَيَدْخُلُونَ. ثُمَّ أَقُولُ : «أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى شَيْءٍ».

قالَ أَنَسٌ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَصابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

***

هذا حِوارٌ قُدْسِيٌّ بين اللهِ عزّ وجلّ ومُصطفاه سيِّدِنا محمدٍ ﷺ حول الشفاعةِ ، التي كرّم الله تبارك وتعالى بها هذا النبيَّ العظيم..

ففي يوم القيامة يُشَفَّعُ الرسولُ ﷺ أي : تُقبل شفاعتُه. فالرسولُ ﷺ شافعٌ مُشفَّعٌ، أي: طالبٌ للشفاعةِ، ومقبولُ الشفاعةِ.

فيُنادي الرسولُ ﷺ ربَّه تبارك وتعالى قائلا: «يارَبِّ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فِي قَلْبِه خَرْدَلَةٌ» . فيُجابُ على الفور، ويدخُل هؤلاء الْجَنَّةَ.

والخَردلةُ: تَعبيرٌ عن الشيء الصغير. والمُراد: الإيمانُ القلبيُّ، فإن الإيمان تصديقٌ وعملٌ ونُطقٌ..

والتصديق هو الرُّكْن الأساسي.. ويزيد هذا التصديقُ وينقُص تبعًا

للأعمــالِ.. ويأتِي النُّطق باللِّســانِ لِتَجْرِىَ على الـمَرْءِ أحكامُ الإســلامِ فِي المجتمعِ..

ورُكْنــا العملِ والنطقِ قد يتحقّقــان في الواقع، وقد يعْتريهما نُقصان أو خَفــاء.. أمّا رُكن التصديقِ القلبيّ، فإمّا أنْ يوجد أو يُعدم. وهو فيْصل التفرقةِ بين الإيمانِ والكُفر فِى الآخِرةِ..

فــإنّ قوْمًا قد يأتــونَ يومَ القيامةِ ولاعمــلَ لهم، فيدخُلــون النَّارَ لقضاءِ العقوبةِ الـمُؤقّتة عليهمْ دهرًا من الزمنِ، فيأتي رســولُ الله ﷺ ليشفعَ لهم فــي انتهاء العقوبة وإدخالهم الجنة، لِما اســتقرَّ في قلوبهم من الإيمانِ، كمِثقالِ حبةٍ من خردلٍ أو أدنى من ذلك.

وقد ضمَّ الرســول ﷺ أصابِعَه وحلّق بها حَلَقاتٍ صغيرة، يُوَضِّح بها مرادَه ويُقَرِّب بها المعنى..

ويظلُّ الرسولُ الكريمُ ﷺ يَشْفَعُ عند ربِّه ويُسْتجاب لشفاعتِه، حتى لايبقى فِى النارِ مَن كان فِى قلبِه أدْنى شيءٍ من الإيمان.. وحينئذٍ تُغلقُ أبوابُ النَّارِ على الكافرين..

﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

فهذا الحديث الشريف يعرض لمناجاة علوية بين سيدنا محمد وربه، يظل فيها الرسول يناجي ربه مرات حتى يخرج من النار أدنى المؤمنين عملاً فضلا من الله ونعمة وإظهار لكرامة رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الجاثية الآية ٣٤.

عُتَقَاءُ اللهِ تبارَك وتعالَى

أخرج البخاريُّ فِى صحيحِه، بِسندِه عن عمرانَ بنِ حُصَينٍ رضِىَ اللهُ عنهما، عن النبىِّ ﷺ، قال: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ».

***

هـذا نبأٌ من الغيْبِ يسُوقه الرسولُ ﷺ تذكيرًا للمُؤمنين، حتى يُسارِعوا إلَى العملِ الصالحِ قبل أنْ تلفَحَهمُ النَّارُ بلهيبِها، وحتى يُدرِكوا فضلَ نبيِّهم، الذى أنقذَهم من النَّارِ بالدعوةِ والعمل..

فإنَّه ﷺ قـد بلَغ الرسـالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصَح الأُمَّةَ، وكشَـفَ الغُمَّـةَ، وجاهد فِـى اللهِ حقَّ جِهادِه، حتى أتاه اليقـينُ.. وإذا كان يومُ القيامةِ، فإنه ﷺ يتعقَّب أُمَّتَهُ فِى كلِّ مكانٍ، ليأخُذَ بأيْديها إلَى الْجَنَّةِ؛ فقد يُـدْرِكُ بعْضَها فِى الطريقِ فيُنقِذُهم إنْقاذا تامًّا مِنَ النَّارِ، وقد يُدرِك بعضًا آخرَ بعد أنْ يُلْقَى فِى جهنَّمَ، فيمسُّـهم منها سَـفْعٌ، أى سوادٌ فيه زُرقة أو صُفرة.. يُقال: سفعتْه النَّارُ إذا لفحَتْه، فغيَّرت لوْنَ بَشَرَتِه..

وفـى صحيح البُخارىِّ عن أنسِ بنِ مالكٍ عن النبىِّ ﷺ قال: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ، بَعْدَمَا مَسَّهُمْ مِنْها سَفْعٌ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيُسَمِّيهِم أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ».

وهـؤلاء الجَهَنميُّون، أى: أَصْحابُ جهنّم، الذيـن قضَوْا فيها حِقَبًا أكْثرَ منْ غيرِهم يُسمَّوْن أيضًا عُتقاءَ اللهِ. فَفِي رِوايةِ لجابر:

«فيُكْتَـبُ فِي رِقابِهِمْ: عُتَقاءُ اللهِ، فَيُسَـمَّوْن فِيها - أَىْ فِي الْجَنَّةِ - الْجَهَنَّمِيِّينَ».

وأَخرجَ النسائيُّ عن أنس:

«فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هؤُلاءِ الْجَهَنَّـمِيُّونَ، فَيَقُولُ اللهُ: هؤُلاءِ عُتَقاءُ اللهِ».

وهـذا الوصفُ بالجهنميِّين يُسـبِّب لهم إزعاجًا وقلقًـا. ولهذا جاء فـى رواية لحُذيْفةَ عند البيْهقيِّ: «أَنَّهُمُ اسْـتَغْفَرُوا اللهَ مِنْ ذَلِكَ الاسْـمِ، فَأَعْفاهُمْ».

ولعلَّ هذا الوصفَ إنما لَحِقهُمْ فترةً من الزمنِ ليـستشعِروا نعمةَ اللهِ عليهم. فإنَّ العدلَ هو عِقابُهم، وإنَّ الفضلَ هو العفوُ عنهم، وإنَّ التكريمَ هو جعلُ العفو مُرتبطًا بشفاعةِ الحبيب المُصْطَفى سيِّدِنا محمدٍ ﷺ..

ولتعلمْ أنَّ الْجَنَّةَ: دارُ السَّلام، لا لغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ.

وكلُّ من دخلِ الجنَّةَ - سـواءً من السابقين أو الآخِرين - يحْظَى بِما لاعيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمِعتْ، ولا خطر على قلْبِ بشَرٍ..

إغْلاقُ الأبْوابِ

أخرج مسلمٌ في صحيحِه، بسندِه عن أبي سعيدٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أمّا أهْلُ النّارِ الّذين هُمْ أهْلُها، فإنّهم لا يَمُوتُون فِيها ولا يَحْيَوْنَ، ولكِنْ ناسٌ أصابَتْهُمُ النّارُ بذُنُوبِهِم - أوْ قال بخَطاياهُمْ - فأماتَهُمْ إماتَةً؛ حَتّى إذا كانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بالشّفاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبائِرَ ضَبائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أنْهارِ الجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يا أهْلَ الجَنَّةِ، أفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَباتَ الحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ».

***

هذا الحديث الشريف يُؤكِّد قاعدةً شرعيةً من أُصولِ الدِّينِ، هي أنَّ الكافرَ مُخلَّدٌ في النارِ أبدَ الآبادِ ودهرَ الداهرين، لا تنالُهُ شفاعةٌ، ولايموتُ فيها فيستريحَ، ولايحيا حياةً طيِّبةً فيَخرجُ منها..

قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ (٧٧)﴾[1].

أمّا المُؤمنُ الذي ارتكبَ ذنبًا أو خطيئةً، ومات دون توبةٍ، فأمْرُه مُفوَّضٌ إلى اللهِ: إنْ شاء عذَّب، وإنْ شاء عفا، لقولِهِ جلَّ شأنه:

(١) سورة الزخرف الآيات ٧٤ - ٧٧.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ (١).

والحديث الشريف يُصوِّر بعضًا مِنْ هؤلاء، إنهمْ مؤمنون يشهدون للهِ بالوحدانيَة ولمحمدٍ ﷺ بالرِّسالةِ؛ لكنهم عملوا السَّيِّئاتِ فأصابتْهم النارُ جزاءَ أعمالِهم، فقضتْ على معالم حياتِهم الإنسانيَّةِ، وأصبحوا كالفحْمِ سودًا؛ فيأذن اللهُ تبارك وتعالى بالشفاعةِ فيهم، ثُمَّ يَنقُلُهم ضبائِرَ ضبائِرَ، أي: جماعاتٍ جماعاتٍ، ثمُ يُميتُهم إماتةً، أي: يمنحُهم مرحلةَ انتقالٍ بيْن ماكانوا فيه من الآلام وبيْن مايصيرون إليْه من الآمالِ، حتى ينسَوْا ما مضى ويستعدُّوا لما هو آتٍ من النعيم المُقيم.

وينشُرُهم اللهُ تعالى على أنهارِ الجنَّةِ يسْتَنْشِقون عبيرَها، ويتوافدُ عليْهم أهْلُ الجنَّة يُبشِّرونهمْ بالنُّزُلِ الجديدِ والمقام الحميد..

«فَيَنْبُتُون نَباتَ الحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْل» أي: يستعيدون نشاطَهم وحيويَّتَهم شيئًا فشيئًا، كما تَخْرُجِ البذرةُ حين يلْقاها ماءُ المطرِ سريعةً وضعيفةً، ثُمَّ تقْوَى وتشتدُّ ..

هؤلاء يكونون آخِرَ أهْلِ النارِ خُروجًا، وآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخولًا..

وحينئذ تُغلق الأبوابُ، ويُقال:

[يا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ بِلا مَوْتٍ.. وَيا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ بِلا مَوْتٍ] .

وهؤلاء الذين أُغلِقت عقِبَهم أبوابُ جَهنَّمَ وأبوابُ الجنةِ، قد خرجوا

(١) سورة النساء الآية ١١٦.

من النَّارِ بشفاعةِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ ، وهم المقْصودون برحمةِ الرحمنِ فِي الحديثِ السابق :

«شَفَعَتِ الْمَلائِكَةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» .

وبذلك يكون لسيِّدِنا محمدٍ ﷺ فَضْلُ السَّبْقِ بالشَّفَاعةِ العُظْمى، وفضْلُ الخِتامِ بالشفاعةِ فِي عُتَقاءِ اللهِ..